وثيقتان عن نشاط
اتباع يوسف صاحب الطابع التجاري

بقلم : أحمد عبد السلام

(مهدى الى الاستاذ محمد السويسي)

يذكر أحمد بن أبي الضياف في ترجمة يوسف صاحب الطابع (1) وزير حمودة باشا الحسيني أنه كان « له عند الكثير من أعيان المملكة والحاضرة أموال لها بال على وجه القراض يتجرون بها معتمدين جاهه ، حتى أن الفقير القادر على عمل التجارة اذا استقرضه رأس مال يهش لذلك ولا يتوقف ولا ياخذ الا ثلث الفائدة من أموال قراضه ترغيبا للناس في العمل » (2) .

وقد سبق لنفس المؤرخ أن بيّن في نفس الترجمة أن يوسف صاحب الطابع « كاد أن ينحصر فيه المتجر خارج الايالة ، لا سيما صوف الشاشية النافقة يومئذ ، وذلك سبب ثروة خدامه كالحاج يونس بن يونس الجربي ومحمد اللوز الصفاقسي » (3) .

---

(1) اتحاف أهل الزمان ، ط ، الشؤون الثقافية ج ، 7 ، ص 89 وما بعدها .
(2) نفس المصدر ، ج 7 ، ص 96 ـ 97 .
(3) نفس المصدر ، ج 7 ، ص 96 .

وقد اشتمل احد الملفات المحفوظة في خزينة الدولة (4) على وثيقتين تتعلقان بنشاط محمد اللوز المذكور الزراعي والتجاري . وهما لا تخلوان من الفوائد التاريخية وذلك ما دعانا الى نشرهما فيما يلي حسب تتابعهما في الزمن :

الوثيقة الاولى

الحمد لله أشهد المكرم الاجل التاجر القارىء أبو عبد الله محمد ابن المكرم الارشد التاجر محمد أيضا الملولي وبه شهر الصفاقسي أنه قبض من المكرم الاجل المحترم الاكمل الارشد الامجد القارىء أبي عبد الله محمد ابن المنعم المرحوم بكرم الله تعالى التاجر أبي العباس أحمد اللوز وبه شهر خمسة عشر ألف ريال وثلاثمائة ريال سكة الوقت باعترافه القبض التام على وجه القراض الجايز بين المسلمين وأنه تسوق بالجميع شاشية وحزمها متمومة العمل بصناديقها بأسعار مختلفة وأراد السفر بها لمحروسة أزمير من بر الترك على طريق طرابلس ليبيعها بالمكان ويتسوق بأثمانها ما شاء من أنواع السلع والمتاجر عدى القطن الشعر وينمي ذلك بما يسوغ شرعا من أنواع التنمية ويرسل ذلك اليه لتونس أو يقدم بذلك يده مطلوقة فيما يظهر له من الفصلين ، وما يفتح الله به من الربح الناشىء عن ذلك يكون بينهما أنصافا وعلى السواء النصف للعامل في مقابلة عمله والنصف لرب المال في مقابلة ماله بعد نضوض رأس المال ورده سالما لربه بعون الملك المتعال . وعليه بتقوى الله العظيم في ذلك إنه منه بالمرصاد لا تخفاه خافية ، ووافقه رب المال على ذلك كله موافقة تامة . شهد عليهما بذلك بحال جوازفي السادس والعشرين من ذى الحجة الحرام من سنة 1226 ست وعشرين ومائتين وألف وبمعرفتهما . . .

---

(4) الخزانة 1 ، الاضمامة 3 ، الملف 33 .

الوثيقة الثانية

الحمد لله أشهد المكرم الاجل الحاج حميدة ابن المرحوم ابراهيم المذبوح وبه شهر من أهل بلد سليمان من الجزيرة القبلية أنه قبض من الشيخ الاجل الفقيه النبيه الاجمل الاكتب الاقبل الابر الناسك الحاج بالضياف ابن المرحوم المنعم بكرم الله تعالى عمارة الباهي باش كاتب بيت خازن دار (كذا) ومن المكرم الارشد المحترم الامجد القارىء الامجد التاجر أبي عبد الله محمد ابن المنعم المرحوم بكرم الحي القيوم أبي العباس أحمد اللوز جميع العشرة آلاف ريال والتسعمائة ريال والثلاثة والسبعين ريالا سكة الوقت باعترافه على وجه القراض الجائز بين المسلمين ليبتاع بها ما شاء من غلات الزيتون بغابة البلد المذكور ويعصره ويبيع زيته . وما يفتح الله به من الربح الناشي عن ذلك يكون بينهم أثلاثا الثلث الواحد للعامل المذكور في مقابلة عمله والثلثان الاثنان لربي المال المذكورين في مقابلة مالهما بعد نضوض رأس المال وردّه لربيه بعون العزة والجلال . وعليه بتقوى الله في ذلك في جميع الاحوال . شهد عليه بذلك بحال جواز بتاريخ التاسع والعشرين من صفر الخير من سنة 1226 ست وعشرين ومائتين وألف وبمعرفته .

في الحاشية : اعترف الشيخ الاكتب الحاج بالضياف أحد ربي المال المذكور أعلاه أمامه (كذا) أن جميع العشرة آلاف ريال والتسعمائة ريال والثلاثة والسبعين ريالا جملة رأس مال القراض المذكورة فيه انما هي للمرعي الاجل المحترم أبي عبد الله محمد اللوز المذكور معه وليس له معه في ذلك شركة بقليل منه ولا كثير بوجه البتة . وانما أصل التعاقد كان وقع على الاشتراك ثم بدا له عدمه وتمحض العدد المذكور بتمامه للمعترف له بانفراده اعترافا تاما قولا منه بالحق وعملا بالصدق ، ووافقه المعترف له على ذلك موافقة تامة ، شهد عليهما بذلك بحال جواز أواخر 26 شوال سنة 1227 سبع وعشرين ومائتين وألف بمعرفتهما كما يجب فقير ربه عبده . . .

تـعـالـيـق

1 ـ إن أتباع يوسف صاحب الطّابع وأعوانه ومشاركيه في تجارته كانوا هم أيضا يقرضون غيرهم من التجار أموالا ليتاجروا بها ويشترطون المشاركة في الربح ، لكن حصّتهم التي يطالبون بها في الارباح (وهي النصف) كانت أوفر ممّا كان يطالب به يوسف صاحب الطابع الذي كان يكتفي بالثلث . ولعل الاموال التي يقرضونها للناس هي بالذات الاموال التي اقترضوها من يوسف صاحب الطابع ، فيكون هذا الفرق من أسباب ثروة هؤلاء الاتباع . وعلى كل فليس هذا بالجديد في تاريخ « الايالة التونسية » فقد كان الباي حسين بن علي وأولاده يفعلون ذلك . وقد قال ابن أبي الضياف عن علي باي بن حسين أنه كان يقرض تجار تونس ولا يشاركهم في ربحهم (الاتحاف ، ج 2 ، ص 161) .

2 ـ يلاحظ أن نصيب صاحب رأس المال في ارباح الشركة المتعلقة بزيت الزيتون (وهو الثلثان) أوفر من أرباحه في الشركة التجارية المتعلقة ببيع الشاشية في تركيا ، ويمكن أن يعلل هذا الاختلاف في الارباح بالاخطار التي كانت تحدق بالتجارة الخارجية .

3 ـ لم نجد تفسيرا نجيب به جوابا كافيا شافيا لما يتردد في النفس من التساؤل عن سبب تراجع الحاج بالضياف ، والد المؤرخ ، عن مشاركة محمّد اللوز فيما أقرضه أحد مزارعي الوطن القبلي من مال . فلم يجدَّ حدث يعلّل ذلك بين التاريخ المذكور في القسم الاول من الوثيقة الثانية والتاريخ المذكور في القسم الثاني منها ، الا ثورة جند الترك التي وقعت في شعبان 1226 هـ/سبتمبر 1811 ، ولا نظنّها كانت ذات أثر كبير في الحياة الاقتصادية . وقد لفت نظرنا من ناحية أخرى وصف الحاج بالضياف « بالناسك » فهل أراد العدل بهذا الوصف الاشارة الى انتساب بالضياف

الى الزاوية الباهية ؟ فانا لا نجد ما يدل على نسك واضح فيما حكاه ابن أبي الضياف عن حياة أبيه في طورها الأوّل ، قبل مقتل يوسف صاحب الطابع .

4 ـ نكتفي باشارة وجيزة الى اختلاف نظرة معاصري يوسف صاحب الطابع ومعاصري ابن أبي الضياف عن نظرتنا اليوم الى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، فنرى المؤرخ ومعاصريه يعتبرون هذا النوع من الاقراض والمشاركة في الربح بالثلث وبالنصف ضربا من الاحسان ، ولا يستغربون هذه السلسلة من المضاربات ولا هذا الهرم من الاستغلال الاقتصادي للنفوذ السياسي .

أحمد عبد السلام